الاحتراس

فى ضوء القرآن الكريم

دراسة بلاغية تطبيقية

د. قاسم إسماعيل على خليفة

مدرس البلاغة والنقد فى كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنين بالقاهرة - جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن البلاغة العربية قد أسهمت إسهاماً كبيراً فى خدمة القرآن الكريم فقد قام علماؤها الأجلاء بدور ملحوظ فى هذا الميدان ، حيث وضعوا نُصْب أعينهم إعجاز القرآن الكريم ، وراحوا يبحثون عن أوجه هذا الإعجاز لذلك الأثر اللغوى الذى وصل إلى درجة متناهية من الفصاحة ، ومرتبة سامية من البلاغة .

وإذا كانت علوم البلاغة المعروفة لدى أساطينها هى - علم المعانى، وعلم البيان ، وعلم البديع ، فإن علم المعانى بصفة خاصة هو الذى تحمّل عبء البحث فى بلاغة القرآن الكريم ، والعمل على بيان مناحى هذه البلاغة ، حتى أصبح البحث فى هذا المجال يكاد يكون هو الهدف الأوحد من دراسة هذا العلم .

ولم يكن ذلك العمل غريباً علي علماء تلك العصور الذين اعتبروا الوصول إلى دلائل الإعجاز فى القرآن الكريم ، والتعرف على أسرار بلاغته مكملة للعقيدة الإسلامية الصحيحة ، حيث إن القرآن الكريم هو معجزة رسول الله ﷺ والوقوف على هذه الأسرار وتلك الدلائل يعنى الإيمان بدعوة الرسول الكريم ﷺ التى تقوم على المعجزة الأبدية ، وهى القرآن الكريم ، إن علم المعانى يحوى الكثير من الأبواب التى تساعد السامع علي فهم الكلام الذى يطرق مسامعه ، وتعين القارئ على إدراك المعانى التى تصافح عينيه ،

ومن هذه الأبواب عظيمة الفائدة ، « باب الإطناب» الذى يقول عنه الإمام العلوى : « الإطناب وادٍ من أودية البلاغة » [1] وهذا أبو هلال العسكرى ينسب إلى أصحاب الإطناب قولهم : «المنطق إنما هو بيان ، والبيان لا يكون إلا بالإشباع والشفاء ، والشفاء لا يقع إلا بالإقناع , وأفضل الكلام أبينه ، وأبينه أشده إحاطة بالمعانى ، ولا يحاط بالمعانى إحاطة تامة إلا بالاستقصاء ... والإيجاز للخواص ، والإطناب مشترك فيه الخاصة والعامة ، والغبى والفطن ، والرِّيض والمرتاض» . [2]

فأبوهلال يرجع إلى الإطناب فى هذا النص – الكثير من الفضل، فيجعله طريقاً إلى البيان الذى يشبع النفس بالمعانى ويقنعها بها . [3]

ولعل هذا ما دفعنى إلى الخوض فى البحث عن نوع من أنواع الإطناب والذى جاء تحت عنوان :

(الاحتراس فى ضوء القرآن الكريم)

وقد بدأت هذا البحث بتمهيد تحدثت فيه عن الإطناب فى اللغة وفى اصطلاح البلاغيين ، ثم قارنت بين الإطناب وبين التطويل والحشو ، ثم تكلمت عن أنواع الإطناب بإيجاز، ثم انتقلت بعد ذلك

---

(١) الطراز جـ ٢ صـ ٢٢٩ .

(١) الصناعتين صـ ١٩٦ .

(٢) الإطناب أنواعه وقيمته البلاغية صـ ١٩ بتصرف .

إلى الحديث عن الجزء الأساسى فى البحث وهو «الاحتراس فى ضوء القرآن الكريم » .

وجعلت ذلك فى فصلين وخاتمة :-

الفصل الأول : تحدثت فيه عن الاحتراس فى اللغة ، وفى اصطلاح البلاغيين، وتكلمت عن أضرب الاحتراس، والفرق بين التكميل والاحتراس، ثم بينت الفرق بين الاحتراس والتتميم ، والفرق بين التكميل والاعتراض، والفرق بين الاحتراس والانفصال .

أما الفصل الثانى : فقد ذكرت فيه نماذج من الاحتراس فى ضوء القرآن الكريم .

أما الخاتمة فقد تضمنت خلاصة هذا البحث .

ولم أرد من وراء ذلك إلا الخير ، والنفع به ، راجياً من الله التوفيق والسداد .

حدائق حلوان

فى يوم الثلاثاء ٢٧ من شوال سنة ١٤١٨ هـ

الموافق ٢٤ من فبراير سنة ١٩٩٨م

د. قاسم إسماعيل على خليفة

مدرس البلاغة والنقد فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة - جامعة الأزهر

تمهيد
الإطـــنـــاب

الإطناب في اللغة :

ترددت كلمة الإطناب فى اللغة بين معان كثيرة منها : [1]

الطُّنْبُ والطُّنُبُ معاً : حبل الخباء والسرادق ونحوهما

والطَّنَبُ : طول فى الرجلين في استرخاء

والإطناب : البلاغة فى المنطق والوصف ، مدحا كان أوذما .

وأطنب فى الكلام : بالغ فيه ، وفرس في ظهره طَنَبٌ أى طول .

والذى يتأمل فى معانى هذه الكلمات يجد أن هناك صفة مشتركة بينهما جميعاً هى صفة الطول والامتداد، وهى ما اعتمد عليها المعنى الاصطلاحى .

والإطناب في الاصطلاح : أن تزيد الألفاظ على قدر المعنى لفائدة، فإن جاءت مساوية للمعنى وعلى قدره فهى المساواة ، وإن نقصت عنه فهو الإيجاز – وقولهم فى التعريف : لفائدة – قيد لإخرج ما إذا كانت الزيادة لغير فائدة بأن تكون حشواً أو تطويلاً ، وهما مخلان ببلاغة الكلام ، بل لا يُعَدُّ الكلام معهما إلا ساقطاً عن مراتب البلاغة كلها .

---

(١) لسان العرب مادة طنب جـ٤ صـ ٢٧٠٨ .

فأما **التطويل** : فهو أن يزيد اللفظ على أصل المراد لا لفائدة ، ولا يكون اللفظ الزائد متعينا، وذلك كقول عدى بن زيد العبادى :-

وقَـدَّدتِ الأديـم لراهشَـيـه

وألفى قولهـا كذبـاً ومَـيْـنا . (١)

فإن الشاعر قد جمع بكلمتين بمعنى واحد وليست إحداهما متعينة وهما الكذب والمين حيث لا يتغير المعنى بإسقاط أيهما ، كما أنه لا فائدة فى الجمع بينهما . وثمة رواية أخرى ورد بها البيت وهى :

وقَـددت الأديـم لراهشَـيـه

وألفى قـولهـا كـذبـاً مَـبـيْـنا .

بكلمة (مبينا) على أنها وصف لـ (كذباً) وعلى هذه الرواية فلا يكون في الكلام تطويل .

وأما الحشو فهو : أن يزاد فى الكلام زيادة بلا فائدة على شريطة أن تكون تلك الزيادة متعينة .. وبهذا يتضح لك الفرق بين التطويل

---

(١) قددت : أى قطعت ، والضميرللزباء وهى امراة تولت الملك بعد أبيها . والأديم : الجلد ، الراهشان عرقان فى باطن الذراع والمعنى أنها قطعت الجلد الملاصق للعروق إلى أن يصل القطع للراهشين ، والبيت من قصيدة يذكر فيها الشاعر الزباء وغدرها لجذيمة ينظر: الإيضاح ص ٢٨٢ وشروح التخليص جـ٣ صـ ١٧٤ ، ومعاهد التنصيص جـ١ صـ ٣١٠ طبعة عالم الكتب بيروت .

والحشو ،وهو أن الزيادة ثمَّ غير متعينة بخلافها فى الحشو فهى متعينة .

والحشو يقع على ضربين :

(أ) **حشو مفسد للمعنى** .. ومثلوا له بقول الشاعر :-

ولا فَضْـلَ فيها للشجاعة والنَّدى

وصَبْرِ الفتى لولا لِقاءُ شَعُوب . (١)

فإن لفظ الندى فيه حشو يفسد المعنى لأن المعنى أنه لا فضل فى الدنيا للشجاعة والصبر والندى لولا الموت وهذا الحكم صحيح فى الشجاعة دون الندى؛ لأن الشجاع لو علم أنه يخلد فى الدنيا لم يخش الهلاك فى الإقدام فلم يكن لشجاعته فضل بخلاف الباذل ماله فإنه إذا علم أنه يموت هان عليه بذله . (٢)

(ب) **حشو غير مفسد للمعنى :**

وهو ما كان فيه زائد متعين ، ولكن ذكره لا يفسد المعنى ، ولا يخل بالمراد ، ومثلوا له بنحو قول زهير :-

---

(١) هذا البيت لأبى الطيب المتنبى

« فيها » الضمير يعود إلى الدنيا ، الندى: الكرم ، شعوب : الموت ، ومعنى البيت :

أن الفضل فيما نعده من فضائل في الحياة الدنيا ، إنما يعود إلى تيقن الإنسان أنه فانٍ غيرمخلد ينظر : الإيضاح صـ ٢٨٢ ومعاهد التنصيص جـ١ صـ٣٢٣.

(٢) شروح التلخيص جـ٣ صـ ١٧٦.

وأعلم علم اليوم والأمس قبله

ولكننى عن علم مافى غدٍ عم . (١)

فقوله (قبله) حشو لأن الأمس يدل على القبلية لليوم ، وهذه الزيادة متعينة حيث لا يصح عطف (قبله) على اليوم كما عطف قوله (الأمس) .

ومعنى البيت : أن الشاعر يحيط علماً بما مضى وولى وبما هو حاضر ، ولكنه لايدرى شيئاً عما يكون منتظراً ومتوقعا فى الغد :-

ونظير هذا قول بعضهم : -

ذكرت أخي فعاودنى

صداع الرأس والوصبِ . (٢)

فإن الرأس حشو ، لأن الصداع لا يكون إلا فى الرأس .

---

(١) قائله زهير بن أبى سلمى ، وعم : أعمى، والكلام على التشبيه ، أى جاهل كالأعمى لا يدرك .ينظر : الإيضاح صـ٢٨٤ ومعاهد التنصيص جـ١ صـ٣٢٥ .

(٢) الصداع : وجع الرأس ، الوصب : المرض ، والوجع الدائم ، ونحول الجسم وقد يطلق على التعب والفتور فى البدن.ينظر:الإيضاح صـ٢٨٣ ، ومعاهد التنصيص جـ١ صـ٣٢٦ .

﴿ أنـــواع الإطنـــاب ﴾

اختلف العلماء فى تعداد أنواع الإطناب فقد أوقفها الخطيب القزوينى عند أحد عشر نوعا ، وقد أوصلها السيوطى إلى واحد وعشرين ، حتى إنه اعتبر دخول حرف فأكثر من حروف التوكيد، أو الأحرف الزائدة نوعاً من أنواع الإطناب ، كما اعتبر ورود الصفة ، أو البدل ، أو عطف البيان ، ضمن هذه الأنواع :

ولنكتف هنا بما ذكره الخطيب القزوينى من أنواع الإطناب وهى:

١- الإيضاح بعد الإبهام ، ومنه أسلوب نعم وبئس ، والتوشيع .

٢- عطف الخاص على العام . ٣- عطف العام على الخاص .

٤- التكرير . ٥- الإيغال .

٦- الاعتراض . ٧- التذييل .

٨- التتميم . ٩- الاحتراس .

١٠- الإطناب بغير هذه الأنواع .

ولنشرع الآن فى إلقاء الضوء على كل نوع من هذه الأنواع :-

١- **الإيضاح بعد الإبهام** : وهو أن يذكر المعنى مجملاً ثم مفصلاً فيزيده ذلك نبلاً وشرفا ومن أمثلته قوله تعالى حكاية عن موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ (١) فإن قول موسى - عليه السلام - ﴿ اشْرَحْ ﴾ يفيد

(١) من سورة طه : (٢٥ ، ٢٦) .

طلب الشرح لشىء ما وهذا أمر مبهم ثم جاء قوله ﴿صَدْرِي﴾ بيانا وتفسيراً لهذا الأمر المبهم الذي يطلب شرحه وكذلك الشأن فى قوله ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ حيث إن قوله ﴿وَيَسِّرْ لِي﴾ يقتضى أن ثمة شيئا مبهما يطلب تيسيره ، ثم وضحه بعد ذلك بقوله : ﴿أَمْرِي﴾ وفى هذا الإيضاح والتفسير بعد الإبهام تأكيد للمعنى وتقوية له . (١)

ومما يندرج تحت هذا النوع : (باب نعم وبئس)

على القول بأن المخصوص بالمدح أو الذم خبر لمبتدأ محذوف وذلك مثل :

نعم الرجل زيد ، وبئس القرين إبليس ، فقد أبهمت فى الرجل والقرين ثم وضحت بزيد ، وإبليس .

ومن الإيضاح بعد الإبهام التوشيع وهو أن يؤتى فى عجز الكلام بمثنى مفسر باسمين ثانيهما معطوف على الأول . كما جاء فى الخبر « يشيب ابن آدم ، وتشيب معه خصلتان : الحرص وطول الأمل . (٢)

---

(١) من مباحث علم المعانى د/ ربيع محمد عبد المحسن صـ ١٨٥ – ١٨٦ .

(٢) رواه الإمام مسلم فى باب كراهة الحرص على الدنيا « برواية » « يهرم ابن آدم وتشيب معه اثنتان : الحرص على المال والحرص على العمر » ينظر : صحيح مسلم جـ ٢ صـ ٧٢٤، طبعة دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤ هـ سنة ١٩٥٥ .

فقول ﷺ - الحرص وطول الأمل بيان للمثنى الذى هو الخصلتان .

٢- **ذكر الخاص بعد العام للتنبيه** علي زيادة فضلة حتى كأنه ليس من جنس العام ، وذلك لأن ذكره منفرداً وبعد اندراجه ودخوله فيما قبله إنمايكون لمزية فيه فنزل التغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الذات وتبعاً لهذا صح أن يعطف عليه ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ . (١)

حيث أفردت الصلاة الوسطى - وهى صلاة العصر عند الكثيرين وعطفت على الصلوات لانفرادها بالفضل حتى كأنها جنس آخر قائم بنفسه لا يعرف حكمه من سابقه . (٢)

٣- **عطف العام على الخاص :**

ويكون ذلك لإفادة العموم والشمول .. مع العناية بالخاص لذكره مرتين : مرة وحده، ومرة مندرجا تحت العام .

ومن أمثلته دعاء سيدنا نوح عليه السلام لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات ، كما جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾(٣) فالكلمتان « المؤمنون والمؤمنات) عامتان عطفتا على

---

(١) آية ٢٣٨ سورة البقرة .

(٢) شروح التخليص جـ ٣ صـ ٢١٧ .

(٣) آية ٢٨ سورة نوح .

كلمات خاصة قبلهما ، وذلك ليعم الدعاء كل من يؤمن بالله ، مع الاهتمام بالخاص السابق عليهما . (١)

٤- التكرير ويؤتى به لأسرار ونكات بلاغية يقتضيها المقام من نحو :

أ- تأكيد الإنذار ليكون أكثر زجراً وأشد تخويفا مثل قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

حيث أكد الإنذار بتكريره ليكون أبلغ فى الردع، وأشد تأثيراً، وكان العطف بثم خاصة للتنبيه على أن الإنذار الثانى أبلغ وآكد من الإنذار الأول . (٣)

ب- زيادة التنبيه على ماينفى التهمة ليكمل تلقى الكلام بالقبول فيقع فى النفس خير موقع وأحسنه وذلك مثل قوله تعالى على لسان رجل من آل فرعون : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ . (٤)

حيث كرر النداء - ياقوم - وفيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة ، وفيه أنهم قومه وعشيرته وهو يعلم وجه خلاصهم ، ونصيحتهم عليه واجبة فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم . (٥)

---

(١) الإطناب أنواعه وقيمته البلاغية صـ ٣٨. (٢) التكاثر آية ٣، ٤ .

(٣) شروح التلخيص جـ ٢ صـ ٢١٨ .

(٤) آية ٣٨، ٣٩ سورة غافر .

(٥) شروح التلخيص جـ ٣ صـ ٢١٩.

٥- **الإيغال** : - وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها كالمبالغة فى قول الخنساء :-

وإن صخراً لتأتمُ الهُداةُ به

كأنه علمٌ فى رأسه نارٌ . (١)

فقولها «كأنه علم » واف بالمقصود ، لكنها أعقبته بقولها « فى رأسه نار» لزيادة المبالغة . (٢)

٦- **الاعتراض** : وهو أن يؤتى فى أثناء الكلام ، أو بين كلامين متصلين فى المعنى بجملة معترضة أو أكثر لا محل لها من الإعراب،وذلك لأغراض بلاغية يرمى إليها البليغ - غيردفع الإيهام ،

(أ) كالدعاء نحو قول الشاعر :

إن الثمانين - وبلغتها

قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

(ب) والتنزيه كقوله تعالى :

﴿ ويجعلون لله البنات - سبحانه - ولهم ما يشتهون ﴾ . (٣)

(جـ) والتهويل كقول تعالى : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾.

وغير ذلك من أغراض بلاغية كزيادة التأكيد ، والاستعطاف . (٤)

---

(١) ينظر : الإيضاح صـ ٣٠٥ . ومعاهد التنصيص جـ١ صـ ٣٤٦ .

(٢) جواهر البلاغة صـ ١٨٥ . (٣) الآية : ٥٧ سورة النحل .

(٤) المرجع السابق صـ ١٨٤ ، ١٨٥ .

٧-**التذييل** : وهو تعقيب جملة بجملة أخرى مستقلة تشتمل على معناها تأكيداً لها نحو قول الله عز وجل : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ .

والتذييل : قسمان :

(أ) **جارٍ مجرى الأمثال** :

لاستقلال معناه واستغنائه عما قبله كقول الشاعر :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تُلمُّهُ
على شعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذَّبُ . (١)

فقوله : أى الرجال المهذب ؟ الذى صيغ فى صورة استفهام يفيد نفى وجود الإنسان الخالى من العيوب ، البعيد عن الوقوع فى الأخطاء، هذا القول هو التذيل الذى خرج مخرج المثل السائر ، حيث لخص المعنى الذى أراده الشاعر وأكده ، وهو أنك لن تستطيع الاحتفاظ لك بأصدقاء ، إذا حاولت أن تنقب عن أخطائهم وهفواتهم ، لأنه ليس هناك شخص يخلو من الاتصاف بشىء من ذلك . (٢)

(ب) **تذييل غير جارى مجرى المثل** :

وهو ما لايستقل بمعناه عن سابقه بل يحتاج إليه ويتوقف فهمه عليه فى إفادة المعنى المراد كقول ابن بناته :

---

(١) ينظر : الإيضاح صـ٣٠٩ ، ومعاهد التنصيص جـ ١ صـ ٣٥٨ .

(٢) أنوار الربيع جـ٣، صـ ٣٩ والإطناب أنواعه وقيمته صـ ٧٦ .

لم يبـــق جودك لى شيئاً أؤمّلُه
تركْـتَنى أصْحَبُ الدنيـا بلا أمل . (١)

فالشاعر فى صدر البيت يوجه كلامه لممدوحه ، ويقول له : إن عطاياك الكثيرة قد حققت لى كل ما كنت أود تحقيقة فى هذه الحياة، وأؤمل فى إنجازه فإذا قال فى الشطر الثانى إن ممدوحه قد تركه يصحب الدنيا، ويعيش فيها بلا أمل ، وقد أكد المعنى السابق وقرره، ولكنه لم يستقل بذاته ، بل إنه يتعلق بما قبله . فهو إذن تذييل ولكنه لم يخرج مخرج المثل السائر .

٨- **التتميم** :- وهو أن يؤتى فى كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة كمفعول أو حال ونحوهما لنكتة بلاغية يستدعيها المقام كالمبالغة فى المدح ، مثل قول الله تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ . (٢)

فالضمير فى قوله (على حبه) إما أن يكون :-

(أ) **للطعام** ، على معني أنهم يطعمون الطعام مع حبهم له وحاجاتهم الشديدة إليه خوفا وخشية من الله تعالى) .. وعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى (على حبه) تتميم ونكتته المبالغة فى مدحهم بالجود والكرم ، لأن إطعام الطعام مع الحاجة إليه أدل على الكرم مما لو كان عن غنى وعدم احتياج إليه .

---

(١) ينظر : الإيضاح صـ ٣٠٨ .

(٢) آيه ٨ سورة الإنسان .

(ب) **وثمة احتمال آخر** وهو أن يكون الضمير لله تعالى ، على معنى أنهم يطعمون على حب الله ، وعلى هذا الاحتمال لا يكون فى الآية تتميم لأن الفضلة حينئذ تكون لتأدية أصل المراد . (١)

٩- **الاحتراس :** وهو موضوع هذا البحث .

١٠- **الإطناب بغير هذه الأنواع :** وقد يجىء الإطناب على غير ماتقدم من أقسام ، وذلك كأن تقول فى الشىء المستبعد : رأيته بعينى، وسمعته بأذنى، وذقته بفمى ، فإن الرؤية لا تكون إلا بالعين، وكذا السمع لا يكون إلا بالأذن، وأيضا الذوق لا يكون إلا بالفم ، فأنت أتيت – إذن – بهذه الثلاثة (عينى، وأذنى ، وفمى) لتأكيد المعنى وتقريره .

و منه أيضا قوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ (٢) فإن قوله تعالي : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ إطناب لأن السقف لا يخرّ إلا من فوق والغرض منه الدلالة على الإحاطة والشمول .

---

(١) شروح التلخيص جـ٣، صـ ٣٥، ٣٧ بتصرف .

(٢) من الآية ٢٦ سورة النحل .

(الفصل الأول)

الاحتراس فى اللغة :

حَرَسَ الشئَ يَحْرُسهُ ويَحْرِسُهُ حَرْساً : حَفِظَهُ، واحترسَ منه : تَحَرَّز . وتَحَرَّسْتُ من فلانٍ واحترستُ منه بمعنىً أىْ تحفظتُ منه. (١) وهذه المعانى لها صلة وثيقة بالمعنى الاصطلاحى إذ فيه حفظ للمعنى ووقاية له من توهم خلاف المقصود .

الاحتراس عند البلاغيين :

جعل أكثر علماء المعانى التكميل (٢) والاحتراس شيئاً واحداً . ومن هنا فقد عرفوا التكميل ، وهو بالتالى تعريف للاحتراس ، فقالوا « وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم » . (٣)

ومعنى هذا أن يكون فى الكلام – بدون تكميل – بعض مايلام عليه القائل ، حيث يمكن أن يوهم بما لم يرده ، فيأتى التكميل أو

---

(١) ينظر : لسان العرب جـ٢ صـ٣٣ ٨ مادة (حرس) طبعة دار المعارف .

(٢) وجه تسميته بالتكميل فلتكميله المعنى بدفع إيهام خلاف المقصود عنه ، وأما وجه تسميته بالاحتراس فلأن حرس الشىء حفظه وهذا النوع فيه حفظ للمعنى ووقاية له من توهم خلاف المقصود ينظر : شروح التلخيص جـ ٢ صـ ٢٣١ .

(٣) ينظر : الإيضاح للخطيب القزوينى صـ٣١٠، شرح وتعليق وتنقيح أ.د/ محمد عبد المنعم خفاجى دار الكتاب اللبنانى ، والإشارات والتنبيهات صـ ١٦١ طبعة دار نهضة مصر تحقيق د/ عبد القادر حسين .

الاحتراس ليزيل هذا الوهم ، ويضع الكلام فى صورته المرادة ، ويبعد مايمكن أن يوجه إليه من عيب .

ومن ذلك قول طرفة بن العبد يمدح قتادة بن مسلم الحنفى :-

فسقي ديَارَكَ - غيرَ مُفْسدها -
صَوْبَ الرَّبيع، وَديمةٌ تَهْمِى. (١)

ولما كان نزول المطر بكثرة يؤدى إلى فساد الديار وخرابها ، فقد احترس طرفة من وقوعه في هذا العيب ، وأتى بقوله « غير مفسدها » ليزيله ويبعده عن مراده . ومن هنا فقد عابوا على ذى الرَّمة قوله :-

ألا يا اسملى يادار ميّ على البلى
ولا زال منهلاً بجرعائك القَطْرُ .

فقال أبو هلال العسكرى : « فهذا بالدعاء عليها أشبه منه بالدعاء لها ، لأن القطر إذا انهل فيها دائماً فسدت » . (٢)

---

(١) صوب الربيع : انصبابه ونزوله ، والربيع : مجاز بالمسبب عن سببه وهو المطر ، والديمة : المطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق ، وتهمى : تسيل لا يثنيها عن السيلان شيء . ينظر : الإيضاح صـ ٣١٠ ومعاهد التنصيص جـ ١ صـ ٣٦٢ .

(٢) ينظر : الصناعتين صـ ٤٠٥، ١٣٨ تحقيق على محمد البجاوى ، محمد أبو الفضل إبراهيم طبع عيسى البابى الحلبى سنه ١٩٧١م .

وقيل : إنه لاعيب فيه ، فقد دعا للديار بالسلامة فى أول البيت ، والدعاء قرينة على إرادة مالا يضر ، وللشاعر أن يكتفى بذلك ، فلا يحترس ، وله ألا يكتفى به ، فيضم إليه الاحتراس . (١)

(أضـــرب الاحـــتراس)

يأتى الاحتراس على ضربين :-

الأول : ضرب يتوسط الكلام : كقول طرفة السابق .

فسقي ديـارَكَ - غيرَ مُفْسدها -
صَـوْبُ الرَّبيع ، وَديمةٌ تَـهْـمِى .

وكقول ابن المعتز يصف فرساً :

صببـنا عليهـــا - ظالمـــينَ - سـياطـنا
فطـارت بها أيـدٍ سِراعٌ وأرْجُلُ . (٢)

فقوله : « ظالمين » تكميل أو احتراس ، دفع به ابن المعتز توهم القارئ لهذا الكلام أن يكون الضرب لهذه الفرس قد تم من أجل بلادتها وبطئها .

---

(١) ينظر : شرح عقود الجمان صـ٧٤ طبعة دار إحياء الكتب العربية عيس البابي الحلبي ، وينظر : الإيضاح جـ ٢ صـ ١٤٢ .

(٢) صببنا عليها سياطنا : أرسلناها عليها بالضرب من علو . والسياط : جمع سوط ، وهو مايتخذ للضرب من جلد مضفور ونحوه ، طارت بها أيد وأرجل : عدت بها عدواً شديداً . ينظر : الإيضاح صـ ٣١٠ .

وكقول : كثير :

لو أنَّ عـزَّة خاصمتْ شَمْسَ الضُّحى

فى الحُسْنِ عِند - مُوَّفقٍ - لقضى لها.(١)

فقوله : « عند مُوَّفق » تكميل حسن ، وإنما كان مثل هذا تكميلاً لأنه لو قال : « عند محكَّم » لتم المعنى ، لكن فى قوله « عند مُوَّفقٍ » زيادة كمل بها حسن البيت ، والسامع يجد لهذه اللفظة من الموقع الحلو فى النفس ماليس للأولى ، إذ ليس كل مُحَكَّم موفقا ، فإن الموفَّقَ من الحكام من قضى بالحق لأهله وفى ذلك إشارة إلي أن عزة تستحق الحسن دون شمس الضحى، فيكون بهذه اللفظة مع التكميل مبالغة ، والتكميل ها هنا من تكميل المعانى النفسية لا تكميل المعانى البديعية ولا الفنون (٢) فقوله : « عند موفق» احتراس دفع به الشاعر مايمكن أن يتوهمه القارىء من أن يكون تخاصم عزة مع الشمس قد كان أمام حاكم غير موفق .

الثانى : ضرب يقع فى آخر الكلام كقوله تعالى :﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) فقوله : ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ تكميل أو احتراس ، جاء بعد قوله :

---

(١) ينظر : الإيضاح صـ٣١٠ ، وتحرير التحبير صـ ٣٥٩.

(٢) ينظر : تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصرى صـ٣٥٩ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٣) من الآية ٥٤ من سورة المائدة .

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين، لتوهم أن ذلتهم لضعفهم، فلما قيل «أعزة على الكافرين» عُلِمَ أنها منهم تواضع لهم ، ولذا عُدّىَ الذُّل بـ « على» لتضمينه معني العطف، كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع، ويجوز أن تكون التعدية بـ (علي) لأن المعنى : أنهم مع شرفهم ، وعُلّو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين، خافضون لهم أجنحتهم. ومن أمثلة هذا الضرب كذلك قول السموأل بن عادياء :

وما مات منّا سيِّدُ فى فراشه

ولا طُلّ منّا حيثُ كان قتيل . (١)

فذكر الشاعر فى صدر هذا البيت أن قومه لا يموتون على فراشهم ، بل يموتون فى الحرب وهذا يوهم بأنهم مجرد حصاد للحروب التى يشتركون فيها ، فلما احترس بقوله : « ولا طل مناحيث كان قتيل » دفع هذا الوهم ، وأثبت أن دماء قتلاهم لا تذهب هدراً وأنهم يثأرون لهم ، فدل بذلك على شجاعتهم . (٢)

---

(١) يقصد من الشطر الأول : أنهم شجعان أهل حرب ، لا يموت أحدهم موتاً طبيعياً وإنما يموتون بجراحات الحروب ، وطل الرجل بالبناء للمجهول : أهدر دمه ، ومعناه : أنهم لا يفوتهم ثأر قتيل من قتلاهم فهم أقوياء .

(٢) ينظر : الإيضاح صـ٣١٢، والإطناب أنواعه وقيمته البلاغية للدكتور / محمود شاكر القطان صـ٥١ .

ومثله أيضا قول أبي الطيب :

أشَـــدُّ من الريـاح الهُوج بطشـاً
وأسْرَعُ في النَّدي منها هبوبها (١)

فإنه لو اقتصر على وصفه بشدة البطش ، لأوهم ذلك أنه عُنْفٌ كله ، ولا لُطْفَ عنده . فأزال هذا الوهم بوصفه بالسماحة ، فكمل المدح فى عجز البيت بذكر الكرم ، ولم يتجاوز فى ذلك كله وصف الريح التى شبه ممدوحه بها فى حالتى بطشه وكرمه ، وما حَسُنَ بيت أبى الطيب إلا لأنه أشرقت عليه أنوار أوصاف النبوة ، فإنه نظر إلى الحديث الذى يرويه ابن عباس رضى الله عنهما – حيث يقول : « كان رسول الله ﷺ :

﴿ أجودَ الناس ، وكان أجود مايكون في رمضان كان كالريح المرسلة ﴾ . (٢)

---

(١) الهوج : جمع هوجاء ، وهى التى لا تستقر على سنن واحد ، والبطش : الأخذ بالقوة ، والندى : الكرم . هبوب الريح : ثورانها وهياجها ينظر : الإيضاح صـ٣١٢

(٢) ينظر : الإيضاح صـ٣١٢ وتحرير التحبير صـ٣٦٠ ، والحديث رواه البخارى فى كتاب المناقب ، ينظر : فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ٦ صـ ٦٥٣ .
طبعة دار الرّيان للتراث الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ سنة ١٩٨٦ م .

الفرق بين التكميل والاحتراس

لقد أشرت إلى أن أكثر علماء المعانى جعل التكميل والاحتراس شيئاً واحداً [1] ولكن فى مقابل هذا الدمج بين التكميل والاحتراس ، فإننا نجد أن المتحققين من المتأخرين ، وأصحاب البديعيات يرون أن كلاً منهما نوع منفرد عن الآخر ، فالاحتراس عندهم هو كما رأيناه سابقاً عند أكثرعلماء المعانى أما التكميل فهو عندهم صنف آخر حيث يقولون فى تعريفه « هو عبارة عن أن يأتى المتكلم بمعنى تام فى فن من الفنون، فيرى الاقتصار عليه ناقصاً ، فيكملة بمعنى آخر ، فى غير ذلك الفصل الذى أتى به أولاً » . [2] وهذا يعنى أن المتكلم أو الشاعر حينما يأتى فى كلامه بمعنى تام فى غرض من الأغراض كالوصف ، أو المدح ، أو الذم أو غيرها ، ثم يرى أن اقتصاره على هذا المعنى فقط غير كامل فيقوم بالإتيان بمعنى آخر غير ذلك المعنى الذى ذكره في صدر كلامه .

---

(١) ينظر ص ٥٥١ من البحث .

(٢) ينظر : أنوار الربيع فى أنواع البديع لابن معصوم المدنى جـ٥ صـ١٨٥، والإطناب أنواعه وقيمته البلاغية ، صـ ٥١ .

ومن أمثلة ذلك قول كعب بن سعد الغنويّ :

حليـمٌ إذا مـا الحـلـمُ زيّن أهلـه

مع الحلم فى عين العدوّ مَهيبُ (١)

فقد اشتمل الشطر الأول على المدح بالحلم ، ولكن الشاعر رأى أن المدح بهذه الصفة لا يكفى ، وذلك لأن العدو لو علم من هذا الممدوح أن الصفة الغالبة علية هى الحلم لما هابه ، فأراد الشاعر أن يكمل هذا المعنى بالهيبة التى ترهب العدو، فأضاف قوله : (مع الحلم في عين العدوّ مَهيبُ) تكميلاً للمعنى الأول .

ويحتوى هذا البيت على الاحتراس كذلك فى قوله « إذا ما الحلم زين أهله » يقول الخطيب القزوينى : فإنه لو اقتصر على وصفه بالحلم ، لأوهم أن حلمه عن عجز ، فلم يكن صفة مدح ، فقال : «إذا ما الحلمُ زيّن أهله» فأزال هذا الوهم » .

وقول الفرزدق :

قبّح الإلـــهُ بنـي كُلَيب إنهـم

لايغْـدِرُون ولا يـفون لجار . (٢)

---

(١) الحلم : الأناة وعدم الطيش والسفه . مهيب : مخشى مخوف وكعب شاعر إسلامى يحسن الرثاء ، والبيت من رثائه لأخيه أبي المغوار . ينظر : الإيضاح صـ ٣١١ .

(٢) ينظر : ديوان الفرزدق جـ١ صـ٣٦٠ دار صادر بيروت .

وبيان ذلك :

أن الفرزدق هجا هؤلاء القوم بعدم الغدر، وكأنه استقل هذا الوصف فقط فيهم، ولم يجده كافياً ، فأضاف إليه قوله : « ولا يفون لجار » مكملاً للمعنى السابق .

ومنها كذلك قول البحترى :

هل العيشُ إلا أن تساعدنا النوّى
بوصل سعاد أو يساعدنا الدّهرُ
على أنها ماعندها لمُواصل
وصال ولا عنها لمصبطر صبرُ . (١)

فلما وصف البحترى سعاد بأنها لا تصل من أراد وصلها ، رأى أن ذلك المعنى لا يكفى ، لأنه يوحى بأن هذه الفتاة قطاعة لحبل من يريد وصالها ، فزاد على ذلك قوله : « ولا عنها لمصطبر صبر » وجعلها لا تطيق صبراً على لقاء من لا يصبر علي بعادها ولا شك أن هذا تكميل حسن كما ذهب إليه بعض العلماء (٢) ولكنىّ لاأرى فرقابين تسميته تكميلاً أو احتراساً فكلاهما شيء واحد . (٣)

---

(١) ينظر : ديوان البحتري جـ٢ صـ٨٤٤ حسن كامل الصيرفى الطبعة الثانية دار المعارف ورواية الديوان « إلا إن تساعفنا » بالفاء .

(٢) ينظر : الإطناب أنواعه وقيمته البلاغية صـ ٥٢ .

(٣) هذا اجتهاد منى .

يقول ابن أبي الإصبع المصرى :-

ولقد أحسن هذا الشاعر فى احتراسه فى صدر البيت وعجزه معاً باحتراسين حسنين . أما الذى فى الصدر فقوله : « إذا ما الحلم زيّن أهله » .

وأما الذى فى العجز فقوله : « مع الحلم في عين العدو مهيب » لأن المهابة قد تكون مع الجهل . (١)

---

(١) ينظر : تحرير التحبير صـ٣٥٨.

«الفرق بين التكميل والتتميم»

أولاً: الفرق بين التكميل والتتميم

لا فرق فى اللغة بين التكميل والتتميم إذ هما شيء واحد لغة [١] **فالكمال** فى اللغة التمام يقال : أكملت الشيءَ أى أجْملْتُه وأتْمَمْتُهُ ، وأكملَهُ هو واستكمله وكمّلَهُ : أتمّهُ ، وجمّله، والتكميلُ والإكمال: التّمام ، واستكمله : استتمه . [٢]

والتتميم هو تفعيل من قولهم تمَّمَهُ إذا أكمله [٣] وفى لسان العرب : تمام الشيء ماتمَّ به وأَتمَّ الشيء وتمَّ به يتمُّ : جعله تاماً ، وتمَّ على الشيء : أكْمَلَهُ . [٤]

أما فى اصطلاح علماء البلاغة فالتكميل هو : أن يؤتى به فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه كما أشرنا من قبل» [٥] وأما التتميم : فهو : يؤتى به فى كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة ، كالمبالغة فى قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [٦] أى مع حبه ، والضمير للطعام ، أى مع اشتهائه ،

---

(١) ينظر : حاشية الدسوقى على مختصر السعد جـ ٣ صـ ٢٣٥ .

(٢) لسان العرب مادة (كمل) . (٣) الطراز للعلوى صـ٤٤٩ .

(٤) لسان العرب مادة (تمم) جـ١ صـ٤٤٧ .

(٥) ينظر ص ٥٥١ من البحث .

(٦) من الآية ٨ سورة الإنسان .

والحاجة إليه ، ونحوه :وآتى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ (١) وكذا ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. (٢)

وبالنظر فى تعريف التتميم والتكميل نجد الفرق بينهما أن النكتة فى التتميم غير دفع توهم خلاف المقصود لا بأنه لا يكون فى كلام يوهم خلاف المقصود إذ لا مانع من اجتماع التتميم والتكميل .

ولقد فرق العلوى بينهما حيث قال :

« .. والتفرقه بين الإكمال والتتميم ظاهرة مع كونهما مشتركين فى أنهما إنما زيدا من أجل رفع الوهم عن تخيل مايحيط من المدح ويُسقطه ، وحاصلها من جهة اللفظ ومن جهة المعنى ، أما من جهة اللفظ فهو :

أن التتميم إنما يقال فى شىء نقَصَ ثم تُمِّمَ بغيره ، بخلاف الإكمال فإنه تامّ لم ينقص منه شىء ، خلا أنّه أُكملُ بغيره ، فصار الأول بالزيادة تامّا ، وصار الثانى بالزيادة كاملاً ،وأما من جهة المعنى فهو أن التتميم إنما يذكر من أجل رفع احتمال متوهم ، فلهذا افترقا ، فالإتمام يرفع الخطأ مما ليس ذمّاً ، والإكمال يرفع الذم المتوهم إذا لم يذكر ، فهذا تقرير ما يمكن من التفرقة بينهما ، ومَنْ عرف أمثلتهما تحقق ما ذكرناه). (٣)

---

(١) من الآية ١٧٧ من سورة البقرة .

(٢) من الآية ٩٢ من سورة آل عمران .

(٣) ينظر : الطراز صـ ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

وذكر العلوى مراد البلاغيين من التتميم حيث قال : « وهو (أى التتميم) فى مصطلح علماء البيان عبارة عن تقييد الكلام بفضلة لقصد المبالغة ، أو للصيانة عن احتمال الخطأ ، أو لتقويم الوزن) وهو بهذا يرد على ثلاثه أوجه :

أولها : أن يكون وارداً على جهة المبالغة بأن تكون الفائدة في تلك الفضلة إنما هى المبالغة لا غير ، ومثاله قول زهير :

مَنْ يلق يوماً – على علاّته – هَرِما

يلق السماحة منه والندى خُلُقَا

فقوله (على علاته) تتميم للمبالغة فوقعت فى غاية الحسن والرشاقة فهذه اللفظة حصل من أجلها مبالغة فى المدح لا يخفى .

وثانيها : أن تكون واردة على جهة الصيانة عن احتمال الخطأ فترد رافعة له ، ومثاله ماقاله بعض الشعراء :

فسقي ديَارَكَ غيرَ مُفْسدها

صَوْبُ الرَّبيع ، وَديمةٌ تَهْمِى

فقوله (غيرَ مُفْسدها) فضلة واردة لرفع الإيهام الحاصل ممن يدعو على الديار بكثرة المطر ليكون مفسداً لها ..) .

وثالثها : أن يكون وارداً على جهة الاستقامة للوزن ولا يحتاج إليه فى المبالغة ولا للاحتراز ومثاله قول المتنبى :

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه

يا جنتي لرأيت فيه جهنما . (١)

فإن المعنى تام لكنه لما كان الوزن غير مستقيم لو انخرم عن قوله (ياجنتى) أتى بها من أجل استقامة الوزن لا غير ، فحصل طباق وحسنُ موقع لا يوجد مع حذفها ، ولو قال مكانها (يامُنْتيَتى) لاستقام الوزن ، لكن لاطباق فيها ولا يكون لها موقع حسنٌ . (٢)

ونلاحظ هنا أن العلوى قد ساق بعض شواهد التكميل للتتميم وقد أوضح هذا صاحب تحرير التحبير إذ يقول :-

« وما وهم فيه المؤلفون فى هذا الموضع أنهم خلطوا التكميل بالتتميم ، إذ ساقوا فى باب التتميم شواهد التكميل لأن كلاً منهم ذكر قول عوف بن محلّم السعدى .

إن الثمانين - وبلغتها

قد أحوجت سمعي إلي ترجمان . (٣)

من شواهد التتميم ، ومعني البيت تام بدون لفظة « وبلغتها » وإذا لم يكن المعنى ناقصا فكيف يسمى هذا تتميماً !

---

(١) خفوق القلب : خفقانه واضطرابه . اللهيب للنار وعبر به هنا عن حرارة الحب والوجد .

ينظر الإيضاح صـ٣١٥ .

(٢) الطراز صـ ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٣) ينظر : المرجع المسابق صـ ٣١٤ .

وإنما هو تكميل ، وما غلطهم إلا من كونهم لم يفرقوا بين تتميم الألفاظ وتتميم المعاني ، فلوسموا مثل هذا تتميماً للوزن لكان قريبا، وإنما ساقوه على أنه من تتميم المعانى البديعية .

ولذلك أتوا بقول المتنبى :

ويحتـقر الدنيـــا احتقار مُجـرّب

يري كُلّ مافيها - وحاشاك - فانيا .(١)

في باب التـتـمـيم ، وهو مـثل الأول ، وإن زاد على الأول أدنى زيادة، لما فى لفظة « حاشاك » بعد ذكر الفناء من حسن الأدب مع الممدوح، وربما سُومح بأن يجعل هذا البيت فى شواهد التتميم لهذه الشبهة وأما البيت الأول فمحض التكميل، ولا مدخل له فى التتميم، اللهم إلا أن يكون مرادهم بالتتميم تتميم الوزن، لا تتميم المعاني، فيجوز بهذا الاعتبار أن يسمىً كلّ ماورد من الحشو الحسن سواء كان متمماً للمعنى أو مكملا ، تتميما ، لأنه به تم الوزن ، ويكون من قسم تتميم الألفاظ ، وما قدمناه من تتميم المعانى . (٢)

وهذا مـا أراده العلوى حين سـاق شواهد التكميل للتتميم فـهو يقصد تتميم الألفاظ للوزن .

---

(١) ينظر : المرجع السابق صـ ٣١٤ .

(٢) ينظر : تحرير التحبير صـ ٣٦٠ ، ٣٦١ .

ويوضح ابن أبى الإصبع الفرق بين التتميم والتكميل فيقول :-

إن التتميم يرد على المعنى الناقص فيتممه ، والتكميل يرد علي المعنى التام فيكمله ، إذ كان الكمال أمراً زائداً على التمام . والتتميم لايكون إلا في المعاني دون الفنون ، أعني بالمعانى معانى النفس، لامعاني البديع ، التى هى أنواعه ، وأعنى بالفنون أغراض المتكلم ومقاصده ، والتكميل يكون فيهما معاً ، هذا إذا لم يرد بالتتميم تتميم الوزن . (١)

ويقول فى أول باب الاحتراس :-

« وهو أى الاحتراس – أن يأتى المتكلم بمعنى يتوجّه عليه دَخَلٌ ، فيفطن له ، فيأتى بما يخلصه من ذلك ، والفرق بين الاحتراس ، والتكميل والتتميم أن المعنى قبل التكميل صحيح تام ، ثم يأتى التكميل بزيادة يَكْمُلُ بها حُسْنُه إما بفن زائد أو بمعنى ، والتتميم يأتى ليتمم نقْص المعنى ونقص الوزن معاً ، والاحتراس لاحتمال دخل على المعنى ، وإن كا تاما كاملاً ، ووزن الكلام صحيحاً ، ثم فرق أيضا بين الاحتراس والمواربة بقوله : « والفرق بينه وبين المواربة بالراء .

---

(١) المرجع السابق صـ ٣٦٢ .

المهملة [1] ، أن الاحتراس يؤتى به وقت العمل عندما يتفطن المتكلم لموضع الدَّخَل ، والموارية يؤتى بها وقت العمل ، وبعد صيرورة الكلام ، والموارية تكون بالتصحيف والتحريف واهتدام الكلمة ، والزيادة والنقص، والاحتراس بزيادة الجمل المفيدة المتضمنة معني الانفصال عما يحتمله الكلام من الدخل ، والموارية تكون فى نفس الكلام وتكون منفصلة عنه ، والاحتراس لا يكون إلا فى نفس الكلام . [2]

---

(١) الموارية حقيقتها أن يقول المتكلم قولاً يتضمن ماينكر عليه بسببه ، لبعد مايتخلص به منه . هذا إن فطن له وقت العمل وإلا ارتجل حين يجبه به – ما يخلصه منه جواب حاضر ، أو حجة بالغة أو تصحيف كلمة ، أو زيادة فى الكلام أو نقص ينظر : تحرير التحبير صـ٢٤٩ .

(٢) تحرير التحبير صـ ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

الفرق بين التكميل والاعتراض

الاعتراض باب من الأبواب الدقيقة فى البلاغة، يساعد المتكلم، أو الأديب على الإبانة عن مراده ، وقد عرَّفه الخطيب القزوينى بقوله :- هو أن يؤتى فى أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معني بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة سوى ماذكر فى تعريف التكميل (١) كالتنزيه والتعظيم فى قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ . (٢)

ثم يقول : « ومن الناس من لا يُقيِّد فائدة الاعتراض بما ذكرناه ، بل يجوّز أن تكون دفع توهم مايخالف المقصود ، وهؤلاء فرقتان :-

فرقة لا تشترط فيه أن يكون واقعا فى أثناء كلام، أو بين كلامين متصلين معنى . بل يجوز أن يقع فى آخر كلام لا يليه كلام، أويلية كلام غير متصل به معنى ، فالاعتراض عند هؤلاء يشتمل التذييل، ومن التكميل مالا محل له من الإعراب جملة كان أو أكثر من جملة . (٣)

---

(١) ينظر : الإيضاح صـ٣١٣ .

(٢) الآية : ٥٧ سورة النحل .

(٣) ينظر : الإيضاح صـ٣١٧ .

ويوضح الدسوقى ذلك فى شرحه لكلام السعد فيقول :

وعلى هذا فيكون بين التكميل والاعتراض على هذا القول العموم والخصوص الوجهى لاجتماعهما فى الصور المشمولة للاعتراض وهو مايكون بجملة لامحل لها من الإعراب لدفع الإيهام إذ لايشترط فى الاعتراض على هذا القول بأن تكون النكتة غير دفع الإيهام ، وينفرد الاعتراض بما يكون من الجمل لغير دفع الإيهام، وينفرد التكميل بغير الجملة وبالجملة التى لها محل . (١)

(١) ينظر : حاشية الدسوقى على مختصر السعد ضمن شروح التلخيص جـ ٣ صـ ٢٤٨ .

الفرق بين الاحتراس والانفصال

يذكر صاحب تحرير التحبير الفرق بينهما فيقول :

الاحتراس هو ما فطن له الشاعر أو الناثر وقت العمل فاحترس منه ، والانفصال مالم يفطن له حتى يدخل عليه ، فيأتى بجملة من الكلام ، أوبيت من الشعر ينفصل به عنه ذلك الدَّخَل . (١)

ويعرف الانفصال ويمثل له فى موضع آخر من كتابه فيقول :

« الانفصال هو أن يقول المتكلم كلاماً يتوجه عليه منه دَخَلٌ إذا اقتصر عليه ، فيأتى بعده بما ينفصل به عن ذلك . كقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (٢) فإن على ظاهر هذه الآية حصل دَخَلٌ من جهة أن الطائر يطير بجناحيه فيكون الإخبار بذلك عريا عن الفائدة ، والانفصال عن ذلك هو أنه سبحانه وتعالى لما قال : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ ﴾ أوجبت البلاغة أن يردف ذلك بقوله ﴿ وَلا طَائِرٍ ﴾ فى السماء أو فى الجو «يطير بجناحيه» فأراد الإيجاز ، فوجب أن يحذف إحدى الجملتين إما في « السماء» أو ﴿ يَطِيرُ ﴾ وما فيها من الضمير ، ولا سبيل إلى حذف الفعل، لأنه

---

(١) ينظر : تحرير التحبير صـ ٢٤٦ .

(٢) الآية ٣٨ من سورة الأنعام .

الذى يتعلق به الجار والمجرور الذى يطير بجناحيه وذكره مطلوب فى الآية، لأن ذكر الجناح يفصل صاحبه من الهمج الذى يظهر وهو يُخَالُ أنه يطير كالنمل والجُعْلان وغير ذلك ، لأن هذا الصنف قد ذكر فى صنف مادَبَّ ودرج فى الأرض ، والآية قصد بها صحة التقسيم ، لأنه سبحانه لما استوعب كّل مايدب على الأرض في صدرها أراد الإتيان بما يعم الذي يطير في الجو ، ولا يطير فى الجو إلا طائر، ولا يسمى طائراً إلا إذا طار بجناحين ، ولا تسمى آلة الطيران جناحاً إلا إذا كانت ذات قَصَبٍ وريش وأبا هر وخوافى وقوادم ، فقوله سبحانه :-

« ولا طائر» بعد ذكر الدواب موضح لما أرد من صحة التقسيم ، ولفظة «طائر» رشحت لفظة « يطير » لمجيئها بعدها، ولفظة « يطير» رشحت الإتيان بلفظة «الجناحين» فحصل من مجموع ذلك الانفصال عن الدَّخَلِ المتوجّه على ظاهر الآية. والله أعلم . (١)

(١) ينظر : تحريرالتحبير صـ ٦٠٩ ، ٦١٠ .

الفصل الثانى
نماذج من (الاحتراس فى ضوء القرآن الكريم)

(١) قال تعالى : ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١) فى قوله تعالى ﴿وَكَهْلاً﴾ احتراس فقد كان في العادة أن من تكلم فى المهد لا يعيش ولا يتمادى به العمر فحصل الاحتراس بقوله :﴿وَكَهْلاً﴾ يريد أنه ليس يموت عاجلاً كأمثاله ممن تكلم في المهد بل يعيش إلى أن يبلغ الكهولة . (٢)

(٢) قال تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾ . (٣)

أى أنتم يا أمة محمد خير الأمم لأنكم أنفع الناس للناس ، لهذا قال (أخرجت للناس) أى أخرجت لأجلهم ومصلحتهم ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وهذا بيان لوجه الخيرية كأنه قيل السبب فى كونكم خير أمه هذه الخصال الحميدة، ثم قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم﴾ أى لو

---

(١) الآية : ٤٦ سورة آل عمران .

(٢) ينظر الفوائد المشوق إلى علوم علوم القران لابن قيم الجوزية ص ٥٢ .

(٣) الآية : ١١٠ ، ١١١ من سورة آل عمران .

آمنوا بما أنزل على محمد ﷺ وصدقوا بما جاء به لكان ذلك خيراً لهم فى الدنيا والآخرة ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى منهم فئة قليلة مؤمنة كالنجاش وعبد الله بن سلام ، والكثرة الكثيرة فاسقة خارجة عن طاعة الله ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾ أى لن يضروكم إلا ضرراً يسيراً بألسنتهم من سبّ وطعن ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ﴾ أى ينهزمون من غير أن ينالوا منكم شيئاً ﴿ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾ أى ثم شأنهم الذي أبشركم به أنهم مخذلون لا ينصرون وفى قوله ﴿ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾ احتراس لأن الكلام لو عطف بالواو مثلاً لظن قصار النظر أنهم إنما وعدوا بالنصر فى تلك الحالة ليس غير، فدفع هذا الظن بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ التي تقطع قطعا لا يرين عليه الشك، بأن النتيجة الحتمية هي النصر المؤزر للمؤمنين، خشية أن يظن بعض الذين لا يحبون المسارعة إلى الموت بأن الوعد بالنصر فى تلك الحالة فقط، وأن الحرب قد تكون سجالاً وأنه قد يأتى دورهم بالنصر، فنفى سبحانه وتعالى هذا الاحتمال ، وقطع على هؤلاء الظانين الطريق لالتماس المعاذير للتخلف عن الجهاد. (١)

---

(١) ينظر : إعراب القرآن وبيانه تأليف الأستاذ محيى الدين الدرويش جـ ٢، صـ ٢٦ ، وصفوة التفاسير تأليف محمد على الصابونى . جـ ١ صـ٢٢٢ .

وفيها أيضا فن الإيغال أى عدم الوقوف عند تولية الأدبار مع تمام الكلام، فأتم بما يوافق الفواصل مع ما يكمل به المعنى التام. (١)

(٣) قال تعالى ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . (٢)

في هذه الآية الكريمة إطناب بالتكميل أو الاحتراس، وذلك فى قوله ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ فهو احتراس يدفع توهم أن القاعد بعذر داخل في عدم الاستواء الذي أشارت إليه الآية الكريمة ، لأن المتخلف بعذر له أجر المجاهد (٣) كما أخبر بذلك النبى ﷺ - حيث قال فى غزوة تبوك : (إن بالمدينة لرجالاً ماسرتم مسيراً ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض) . (٤)

(٤)- قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . (٥)

---

(١) المرجع السابق جـ٢ صـ٢٦ .

(٢) الآية ٩٥ سورة النساء جـ صـ٢٢٢ .

(٣) ينظر : من بلاغة النظم القرآنى تأليف د/ بسيونى عبد الفتاح صـ٢٨٥.

(٤) رواه مسلم . (٥) الآية ٥٤ سورة المائدة .

فقوله تعالي ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ تكميل لاحتراس ، فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين لتُوهم أن ذلتهم لضعفهم ، فلما قيل « أعزة على الكافرين عُلِمَ أنها منهم تواضع لهم ، ولذا عُدّى الذلِ بـ (على) لتضمينه معنى العطف ،كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع، ويجوز أن تكون التعدية بـ (على) لأن المعنى أنهم مع شرفهم ، وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين ، خافضون لهم أجنحتهم . (١)

(٥)- قال تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢) فإنه – سبحانه وتعالى – لما أثبت له إدراك الأبصار اقتضت البلاغة فن الاحتراس تفاديا لأن يظن ظان أنه إذا لم يكن مدركاً لم يكن موجودا فوجب أن تقول « وهو يدرك الأبصار » لتثبت لذاته الوجود (٣) وفي الآية أيضا محسِّن الطباق بين قوله : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ وقوله « وهو يدرك الأبصار » . وجملة وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ معطوفة علي جمله ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ فهى صفة أخرى أو هى تذييل للاحتراس دفعاً لتوهم أن من لا تدركه الأبصار لا يعلم أحوال من لا يدركونه . (٤)

---

(١) الإيضاح ص ٣١٠ ، ص ٣١١ .

(٢) الآية : ١٠٣ من سورة الأنعام .

(٣) إعراب القرآن وبيانه جـ٣ صـ١٨٩ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ٧ صـ٤١٦ .

(٦)- قال تعالى ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[١] ففي قوله تعالى ﴿ ... وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ احتراس فإنه سبحانه وتعالى لما أخبر بهلاك من هلك بالطوفان أعقبه بالدعاء على الهالكين ووصفهم بالظلم ليعلم أن جميع من هلك كان مستحقا للعذاب مستأهلاً له احتراساً من ضعيف يتوهم أن الهلاك بعمومه قد شمل من لايستحق العذاب فلما دعا على الهالكين علم أن كل من هلك كان مستحقا للهلاك لأنه ثبت بالبرهان أنه عادل فلا يدعو إلا على من يستحق الدعاء ووصفهم بعد الدعاء عليهم بالظلم فإن لم يكونوا ظالمين فقد دخل خبره الخلف وخبره منزه عن ذلك فوقع هذا الدعاء وهذا الوصف احتراسا من ذلك الذى قدر توهمه . [٢]

(٧) - قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ . [٣]

المعنى أنهم صبروا لأجل أن الصبر مأمور به من الله لا لغرض آخر كالرياء . [٤]

---

(١) الآية : ٤٤ من سورة هود .

(٢) ينظر : إعراب القرآن وبيانه جـ٤ ، صـ٣٦٣ .

(٣) الآية : ٢٢ من سورة الرعد .

(٤) التحرير والتنوير جـ١٣ ، صـ ١٢٩ .

ففي قوله تعالى : ﴿صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ احتراس ، فقد انتفى بقوله ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أن يكون صبرهم ناشئاً عن حب الجاه والشهرة أو ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل وأوقره عند الزلازل لئلا يشمت به الأعداء . (١)

(٨)- قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾. (٢)

الاستثناء في قوله تعالى ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس﴾ هذا الاستثناء لولم يتقدم لفظه هذا الاحتراس من قوله ﴿كلهم أجمعون﴾ لا حتمل أن يكون في الملائكة من لم يسجد فيتأسى به إبليس ولا يكون منفرداً بهذه الكبيرة لاحتمال أن تكون آلة التعريف للعهد لا للجنس فلما كان هذا الإشكال يتوجه على الكلام إذا اقتصر فيه على مادون التوكيد وجب الإتيان بالتوكيد ليعلم أن آلة التعريف للجنس فيرتفع هذا الإشكال بهذا الاحتراس فحينئذ تعظم كبيرة إبليس لكونه فارق جميع الملأ الأعلى ، وخرق إجماع الملائكة فيستحق أن يفرد بهذا اللعن إلى آخر الأبد . (٣)

---

(١) إعراب القرآن وبيانه جـ٥ صـ ١١٧ .

(٢) الآيات : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ من سورة الحجر .

(٣) إعراب القرآن وبيانه جـ٥ صـ٢٤٢، ٢٤٣ .

(٩)- قال تعالى :﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ . (١)

لما ذكر عاقبة إضلال الماكرين وصدهم السائلين عن القرآن والإسلام فى الآخرة أتبع بالتهديد بأن يقع لهم ما وقع فيه أمثالهم فى الدنيا من الخزى والعذاب مع التأييس من أن يبلغوا بصنعهم ذلك مبلغ مرادهم ، وأنهم خائبون فى صنعهم كما خاب من قبلهم الذين مكروا برسلهم .

ومعنى ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم ﴾ استعارة بتشبيه القصاد للانتقام بالجائى نحو المنتقم منه ، وقوله تعالي : ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ تمثيل لحالات استئصال الأمم، فالبنيان مصدر بمعني المفعول أى المبنى، وهو هنا مستعار للقوة والعزة والمنعة وعلو القدر، والقواعد : الأسس والأساطين التى تجعل عمدا للبناء يقام عليها السقف .

وهو تخييل أو ترشيح ، والخرور : السقوط والهوى ، ففعل خَرّ مستعار لزوال مابه المنعة نظير قوله تعالى: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ ﴾(٢) والسقف : حقيقته غطاء الفراغ الذى بين جدران البيت، يجعل على الجدران وتكون من حجر ومن أعواد ، وهو هنا

---

(١) الآية : ٢٦ من سورة النحل .

(٢) من الآية : ٢ : من سورة الحشر .

مستعار لما استعير له البناء و ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ تأكيد لجملة ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾ ومن مجموع هذه الاستعارات تتركب الاستعاره التمثيلية وهى تشبيه هيئة القوم الذين مكروا في المنعة فأخذوهم الله بسرعة وأزال تلك العزة بهيئة قوم أقاموا بنياناً عظيماً ذا دعائم وآووا إليه فاستأصله الله من قواعده فخر سقف البناء دفعة على أصحابه فهلكوا جميعا . (١)

ولقائل أن يقول : السقف لا يكون إلا من فوق فما معنى ذكر «من فوقهم » والجواب أنه احتراس من احتمال أن السقف قد يكون أرضاً بالنسبة لغيرهم ، فإن كثيراً من السقوف يكون أرضا لقوم وسقفاً لقوم آخرين فرفع الله تعالى هذا الاحتمال بجملتين وهما قوله ﴿عَلَيْهِمُ﴾ وقوله «خر» لأنها لاتستعمل إلا فيما يهبط أو يسقط من العلو إلى السفل . (٢)

(١٠)- قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴾. (٣)

المعنى : أثمرت الجنتان إثماراً كثيراً« ولم تظلم منه شيئا » لم تنقص منه أى من أكلها شيئا أى لم تنقصه عن مقدار ماتعطيه

---

(١) التحرير والتنوير جـ ٤ صـ١٣٣ - ١٣٥ بتصرف .

(٢) إعراب القرآن وبيانه جـ٥ وبيانه صـ٢٩٢ .

(٣) الآية : ٣٣ من سورة الكهف .

الأشجار فى حال الخصب ففى الكلام إيجاز بحذف مضاف والتقدير : ولم تظلم من مقدار أمثاله . واستعير الظلم للنقص على طريقة التمثيلية بتشبيه هيئة صاحب الجنتين فى إتقان خبرهما وترقب إثمارهما بهيئة من صار له حق فى وفرة غلتها بحيث إذا لم تأت الجنتان بما هو مترقب منهما أشبهتا من حرم ذا حق حقه فظلمه ، فاستعير الظلم لإقلال الإغلال ، واستعير نفيه للوفاء بحق الإثمار . (١)

واحترس بقوله ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ من أن يكون ثمة نقص فى الأكل الذى آتته وليكون كناية عن تمام الجنتين ونموهما دائما وأبدا وأنهما ليستا على عادة الأشجار حيث يتم ثمرها فتؤتيه ببعض السنين دون بعض أو تأتى بالثمر ناقصا عاما بعد عام فهى فيّاضة المورد فى كل حين . (٢)

(١١)- قال تعالى : ﴿ كهيعص ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ . (٣)

النداء فى الأصل رفع الصوت وظهوره وقد يقال لمجرد الصوت بل لكل مايدل على شيء وإن لم يكن صوتا على ما حققه الراغب والمراد هنا إذ دعاربه ﴿ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ أى دعاه مستورا عن الناس لم

---

(١) التحرير والتنوير جـ١٥ صـ٣١٨ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه جـ٥ صـ ٦٠٤، ٦٠٥ .

(٣) الآيه : ١ ، ٢ ، ٣ من سورة مريم .

يسمعه أحد منهم حيث لم يكونوا حاضريه وكان ذلك على ماقيل فى جوف الليل ، وإنما أخفى دعاءه عليه السلام لأنه أدخل فى الإخلاص وأبعد عن الرياء وأقرب إلى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولدلتوقفه على مبادى لايليق به تعاطيها في أوان الكبر والشيخوخة وعن غائلة مواليه . (١)

وفى قوله تعالى: ﴿خَفِيًّا﴾ احتراس فقد أتى بها مراعاة لسنة الله فى إخفاء دعوته لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان فكان الأولى به أن يحترس مما يوهم الرياء أمام الناس الذين يحكمون على الظاهر ويجهلون حقيقة الدخائل أولئلا يلام على طلب الولد فى إبان الكبرة والشيخوخة ودفعاً للفضول الذى يطلق الألسنة بمختلف أنواع الملام ، وقيل احترس من مواليه الذين خافهم ، وقيل ليس فى الأمر احتراس وإنما الكلام جار على حقيقته لأن خفوت صوته ناتج عن ضعفه وهرمه حيث يخفت الصوت ويكل اللسان وتعشى العينان وتثقل الآذان على حد قول عوف بن محلم الخزاعى :

إن االثمانين – وبلغتها

قد أحوجت سمعي إلي ترجمان

وقد قيل فى صفات الشيخ « صوته خفات، وسمعه تارات ».(٢)

---

(١) ينظر : روح المعانى للألوس جـ١٦ صـ ٥٩ .

(٢) ينظر : إعراب القرآن وبيانه جـ٦ صـ٥٨ .

(١٢) – قال تعالى : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾[١] هذه معجزة أخرى علمها الله لسيدنا موسى عليه السلام حتى إذا تحدى فرعون وقومهُ عمل مثل ذلك أمام السحرة فهذا تمرين على معجزة ثانيه مُتَّحِدِ الغرض مع إلقاء العصا .

والجناح : العضد وماتحته إلى الإبط ، وأطلق عليه ذلك تشبيها بجناح الطائر والضمُّ: الإلصاق ، أى ألصق يدك اليمنى التى كنت ممسكا بها العصا . وكيفية إلصاقها بجناحه أن تباشر جلد جناحه بأن يدخلها من جيب قميصه حتي تماس بشرة جنبه ، كما فى هذه الآية ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ [٢] جعل الله تغير لون جلد يده عند مماستها جناحه تشريفا لأكثر ماينا سب من أجزاء جسمه بالفعل والانفعال .

وبيضاء حال من ضمير﴿ تَخْرُجْ ﴾ و﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ حال من ضمير ﴿ بَيْضَاءَ ﴾ ومعنى ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ من غير مرض مثل البرص والبهق بأن تصير بيضاء ثم تعود إلى لونها المماثل لون بقية بشرته . [٣]

---

(١) الآية : ٢٢ من سورة طه .

(٢) من الآية : ١٢ من سورة النمل .

(٣) التحرير والتنوير جـ١٦صـ٢٠٨.

يقول الألوسي : والسوء الرداءة والقبح فى كل شيء ، وكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة لما أن الطباع تنفر عنه والأسماع تمجه وهو أبغض شيء عند العرب . وفائدة التعرض لنفى ذلك الاحتراس فإنه لو اقتصر علي قوله تعالى : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ﴾ لأوهم ولو على بعد أن ذلك من برص ، ويجوز أن يكون الاحتراس عن توهم عيب الخروج عن الخلقة الأصلية على أن المعنى تخرج بيضاء من غير عيب وقبح فى ذلك الخروج أو عن توهم عيب مطلقا. يروى أنها خرجت بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يغشى البصر وكان عليه السلام آدم اللون . (١)

(١٣)- قال تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . (٢)

كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزنى ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها وهذا هو البغاء في صورته التى ما تزال معروفة حتى اليوم – فلما أراد الإسلام تطهير البيئة الإسلامية حرم الزنا بصفة عامة ، وخصَّ هذه الحالة بنص خاص : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فنهى الذين يكرهون

---

(١) روح المعانى للألوسى جـ١٦صـ١٨٠ .

(٢) من الآية : ٣٣ سورة النور .

فتياتهم على هذا المنكر، ووبخهم على ابتغاء عرض الحياة الدنيا من هذا الوجه الخبيث ووعد المكرهات بالمغفرة والرحمة ،بعد الإكراه الذى لا يد لهن فيه .

قال السدى : أنزلت هذه الآية الكريمة فى عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها ، إرادة الثواب منه ، والكرامة له فأقبلت الجارية إلى أبي بكر -رضي الله عنه- فشكت إليه ذلك ، فذكره أبو بكر للنبى ﷺ فأمره بقبضها : فصاح عبد الله بن أبى بن سلول : من يعذرنا من محمد ؟ يغلبنا على مملوكتنا ! فأنزل الله فيهم هذا النهى عن إكراه الفتيات على البغاء - وهن يردن العفة - ابتغاء المال الرخيص وهذا النهى كان جزءا من خطة القرآن فى تطهير البيئة الإسلامية ، وإغلاق السبل القذرة للتصريف الجنسى . ذلك أن وجود البغاء يغرى الكثيرين لسهولته ، ولو لم يجدوه لا نصرفوا إلى طلب هذه المتعة فى محلها الكريم النظيف (١) [illegible] فى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ فقد اقحم هذا الاعتراض ليبشع ذلك عند المخاطب ويحذره من الوقوع فيه ولكى يتيقظ أنه كان ينبغى له أن يأنف من هذه الرذيلة وإن لم يكن زاجر شرعى ، ووجه التبشيع

---

(١) ينظر فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب جـ٤ صـ٢٥١٦ .

عليه أن مضمون الآية النداء عليه بأن أَمَتَهُ خير منه لأنها آثرت التحصّن عن الفاحشة وهو يأبى إلا إكراهها عليها . (١)

(١٤)- قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ . (٢) الرسول ﷺ يقوِّم العقيدة كما ينبغى أن تقوَّم فيعلن أنه مأمور أن يعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، لا شريك له، ويكمل التصور الإسلامى للألوهية الواحدة ، فرب هذه البلدة هو رب كل شيء في الوجود «وله كل شيء » . (٣)

وفى قوله تعالى ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ احتراس بديع ، فقد أضاف الله سبحانه وتعالى اسمه إلى مكة تشريفا لها وذكراً لتحريمها ، ولما أضاف اسمه إلى البلدة والمخصوصة بهذا التشريف أتبع ذلك إضافة كل شيء سواها إلى ملكه قطعا لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها وتنبيها على أن الإضافة الأولى إنما قصد بها التشريف لا لأنها ملك الله تعالى خاصة . فاحترس لئلا يتوهم من إضافة ربوبيته إلى البلدة اقتصار ملكه عليها ليعلم أن تلك الإضافة لتشريف المضاف إليه لا لتعريف المضاف بتعيين مظهر ملكه . (٤)

---

(١) ينظر : الكشاف للزمخشرى جـ٣ صـ٦٦ ، وإعراب القرآن وبيانه جـ٦،صـ٦٠٢ .

(٢) الآية : ٩١ من سورة النمل .

(٣) في ظلال القرآن جـ٥ صـ٢٦٦٩ ، ٢٦٧٠ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير جـ٢٠صـ٥٧ ، وإعرب القرآن وبيانه جـ٧صـ٢٦٨ .

(١٥)- قال تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[١] فى هذه الآية احتراس وهو أعجب احتراس وقع فى كتاب الله الكريم ، فإنه - تبارك وتعالى لما نفى عن حبيبه ورسوله ﷺ أن يكون بالمكان الذى قضي فيه لموسي عليه السلام الأمر ، عّرف المكان بالجانب الغربى ، ولم يقل في هذا الموضع كما قال فى الإخبار عن موسى عليه السلام - : وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ[٢] أدبا مع نبيه وحبيبه محمد ﷺ أن ينفي عنه كونه بالجانب الأيمن ، ولما أخبر عن موسى عليه السلام - ذكر الجانب الأيمن تشريفاً لموسى - عليه السلام - فالمح لطيف هذا الاحتراس من بلاغة الكتاب العزيز جلّ المتكلم به .[٣]

(١٦)- قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ .[٤]

يقول صاحب تحرير التحبير : ومن لطيف الاحتراس فى القرآن قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ فإن هذا الكلام لو اقتصر عليه لجاء موافقا لمعتقد المشركين فى إنكار البعث ، فلا جرم أن البلاغة أوجبت الاحتراس

---

(١) الآية : ٤٤ سورة القصص .

(٢) الآية : ٥٢ من سورة مريم .

(٣) تحرير التحبير ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٤) الآيتان : ٣١ ، ٣٢ سورة يس .

من هذا الاحتمال بقوله - سبحانه ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ . (١)

(١٧) - قال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ (٢) ﴿ أَشِدَّاءُ ﴾ جمع شديد ، و﴿ رُحَمَاءُ ﴾ جمع رحيم والمعنى أن فيهم غلظة وشدة على أعداء الدين ، ورحمة ورقة على إخوانهم المؤمنين ، وفى وصفهم بالرحمة بعد وصفهم بالشدة تكميل واحتراس فإنه لو اكتفي بالوصف الأول لربما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر فيتوهم الفظاظة والغلظة مطلقا فدفع بإرداف الوصف الثاني ، وقد بلغ كما روى عن الحسن من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحة وعانقة . (٣)

(١٨) - قال تعالى :﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾ (٤) فى قوله: ﴿ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾ فن الاحتراس لمّا قال ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾

---

(١) تحرير التحبير صـ ٢٤٧ .

(٢) من الآية : ٢٩ سورة الفتح .

(٣) ينظر : روح المعانى جـ٢٦ صـ١٢٣ ، والفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن قيم الجوزية صـ٩٠ .

(٤) الآيات : ٤١ : ٤٢ :٤٣ :٤٤ سورة الواقعة .

أوهم أن الظل ربما جلب لهم شيئا من الراحة بعد التعب فنفى عنه صفتي الظل يريد أنه ظل ولكن لاكسائر الظلال التي تنشر البرد والروح وتجلب النفع لمن يأوى إليه ويتفيأ تحته ليمحق ما فى مدلول الظل من الاستراوح إليه فقوله « لابارد ولاكريم » صفتان للظل لا لقوله ﴿مِّن يَحْمُومٍ﴾ . (١)

---

(١) إعراب القرآن وبيانه جـ٩ صـ ٤٣٦ .

خـاتمـة البحـث

لقد قمت فى هذا البحث بدراسة (الاحتراس) في مؤلفات القدماء والمحدثين من علماء البلاغة العربية ، ثم تتبعت شواهده فى رياض القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ثم توصلت فى نهاية المطاف إلى نتائج مفيدة منها :

١- كثرة ورود هذا اللون فى القرآن الكريم ، وأنه جاء مرتبطاً بنظم الآيات وله تعلق بمضون الآية وبالغرض العام .

٢- بيَّن هذا البحث الفرق بين الاحتراس والتكميل ، والفرق بين الاحتراس والتتميم ، حيث إن كثيراً من المؤلفين كما ذكر صاحب تحرير التحبير - خلطوا التكميل بالتتميم ، و ساقوا فى باب التتميم شواهد التكميل، كما بيَّن هذا البحث الفرق بين التكميل والاعتراض ، والفرق بين الاحتراس، والانفصال.

ولا أزعم أنني وصلت في هذا البحث إلى درجه الكمال فالكمال لله وحده فإن أكن قد وفقت ، فذلك الفضل من الله وإن كنت قد قصرت في بعض الجوانب ، أو جانبنى الصواب ، فأنا بشر والبشر ديدنهم التقصير ، وفي طبعهم الخطأ .

والله الكريم أسال أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهة الكريم ، وأن يجعلنا من طلاب العلم العاملين ، وأن يهيىء لنا الأسباب الموصلة إلى تحصيله، وأن يعيننا على استيعابه والعمل به ، إنه سميع مجيب وهو حسبى ونعم الوكيل .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين

دكتور / قاسم إسماعيل علي خليفة
المدرس في كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالقاهرة - جامعة الازهر

مراجع البحث

١- الإتقان في علوم القرآن .

لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى طبعة عالم الكتب بيروت

٢- الإشارات والتنبهات في علوم البلاغة .

لمحمد بن على بن محمد الجرجانى تحقيق الدكتور / عبد القادر حسين طبعة دار نهضة مصر القاهره سنه ١٩٨١م .

٣- أنوار الربيع فى أنواع البديع .

للسيد على صدر الدين بن معصم المدني تحقيق شاكر هادى شكر مطبعة النعمان والنجف الأشرف العراق الطبعة الأولى سنه ١٣٨٩ هـ سنه ١٩٦٩م.

٤- الإطناب أنواعه وقيمته البلاغية

تأليف الدكتور / محمد شاكر القطان - الطبعة الأول- مطبعة المدينة .

٥- الإيضاح لتلخيص المفتاح .

لأبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزوينى- تحقق أ.د/ محمد عبد المنعم خفاجى - طبعة دار الكتاب اللبنانى .

٦- إعراب القرآن وبيانه

تأليف الأستاذ محى الدين الدرويش -الطبعة الرابعه لسنه ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م - دار ابن كثير للطباعه والنشر والتوزيع بدمشق .

٧- التحرير والتنوير .

لسماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهربن عاشور نسخة مصوره من النسخة المطبوعة بتونس.

٨- تحرير التحبير .

لابن أبى الإصبع المصرى طبعة المجلس الأعلى للشؤن الإسلامية .

٩- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع .

للسيد أحمد الهاشمى الطبعة السادسة دار الكتب العلمية بيروت .

١٠- حاشية الدسوقى على مختصر السعد ضمن شروح التلخيص

طبعه عيسي البابى الحلبى سنه ١٩٣٧م .

١١- روح المعاني

لأبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى - طبع المركز الإسلامى للطباعة والنشر مكتبه دار التراث بالقاهرة

١٢- شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان
لجلال الدين السيوطى دار إحياء الكتب العربية : عيسى البابى الحلبى .
١٣- شروح التلخيص
طبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه سنة ١٩٧١م
١٤- صفوه التفاسير
تأليف محمد على الصابونى طبعة دار الصابونى بالقاهرة الطبعة التاسعة
١٥- الصناعتين : الكتابة والشعر
لأبى هلال العسكرى تحقيق علمي محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم طبعة عيسى البابى الحلبي وشركاه سنه ١٩٧١م .
١٦- الطراز : المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز
ليحيى بن حمزج العلوى دار الكتب العلمية بيروت سنه ١٤٠٠هـ سنه ١٩٨٠م .
١٧- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن
لابن قيم الجوزيه مكتبه المتبني بالقاهرة
١٨- فى ظلال القرآن
لسيد قطب طبعة دار الشروق الطبعة السابعة عشرة سنه ١٤١٠هـ سنه ١٩٩٠م .

١٩- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل
تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى طبعة مصطفي البابي الحلبى بمصر الطبعة الأخيره سنه ١٣٩٢ م سنه ١٩٧٢ م
٢٠- لسان العرب
لابن منظور جمال الدين بن مكَّرم الأنصارى طبعة دار المعارف بمصر
٢١- معاهد التنصيص
تأليف الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسى المتوفى سنه ٩٦٣هـ طبعه عالم الكتب - بيروت
٢٢- من بلاغة النظم القرآني
تأليف د/ بسيونى عبد الفتاح الطبعة الأولى .
سنه ١٤١٣هـ سنه ١٩٩٢ م مطبعه الحسين الإسلامية .
٢٣- من مباحث علم المعانى
تأليف د/ ربيع محمد عبد المحسن د/ عبد العزيز حسن خضر.